ضجيج العيون
تأليف يسرى فرج

-بسم الله الرحمان الرحيم-

فِي ثنايا المدينةِ البعيدةِ، دُجىً ونورٌ أعشى..
ظلامٌ دامسٌ، ممتدٌّ متجذرٌ في كلِّ ذرةٍ فيها، كأنَّ شمسَها غادرتْ ذاتَ شتاءٍ قديمٍ ولم تعُدْ، كأنَّها لم تكنْ يوماً...
كأن لم يُشتقْ إليها أحدٌ فغابتْ إلى أبدِ الآبدينَ، وكذلكَ غابَ الضياءُ فلا نورَ،و لا ضياءَ، ولا إشراقَ.

وصمتٌ رهيبٌ، موحشٌ، ولا صوتَ سوى صوتِي... أو بقايا صوتِي، أو صوتُ خطواتِي التي تركضُ وكأنَّها لا تركضُ، بل تعوي في ليلٍ بلا قمرٍ. كنتُ أركضُ.

أركضُ لا لأنَّ شيئاً يطاردُنِي، بل لأنَّ كلَّ شيءٍ فِيَّ يريدُ الفرارَ مِنِّي. أفر من جسدِي، من رأسِي، من

قلبِي الذي صارَ سجناً صغيراً تنبضُ فيهِ الذكرى.

أركضُ هرباً أو ربما جزعاً. أأهربُ من الصمتِ المدويِّ أم من الظلامِ الدامسِ أم من العتمةِ التي لا تنتهي؟ لكن... أينَ المفرُّ؟

أركضُ باحثاً عن بصيصِ نورٍ، عن شعلةٍ، عن قبسِ ضياءٍ... عن صوتٍ آخرَ يكسرُ هذا الوجومَ المرعبَ، هذا الهجسَ الصامتَ. حتى أنفاسِي... أنفاسِي نفسُها، تكادُ تختفِي، تكادُ تُنتَشُ، والصمتُ لا يزالُ قائماً.

الصمتُ... لكن منذُ متى؟ منذُ متى أصبحَ الصمتُ بهذا الصدى؟ منذُ متى اكتسبَ هذا الصوت الأشجَّ و الجبروتَ العظيمَ، ليطغى حتى على أنفاسِي؟ منذُ متى صارَ الصمتُ ليسَ غياباً للصوتِ، بل حضوراً لشيءٍ أعمقَ، أخطرَ، كأنَّ

الوجودَ نفسَهُ انكمشَ وسكتَ، ذاك الوحشُ الذي يغمرُ كلَّ صوتٍ... صوتَ أنينِي، صوتَ قدمِيَّ، قدمايَ اللتانِ تجرَّانِ الأرضَ ركضاً... قدمايَ الهاربتانِ

من ماذا؟ من الصمتِ؟

منذُ متى وللصمتِ رائحةٌ؟

صحوتُ أو ربما لم أصحُ بعدُ كانتِ المدينةُ البعيدةُ تتراءى لي ثم اختفتْ أو تلاشتْ، وكذلك تلاشتْ ذكراها.

كانَ حلماً أو لربما كابوساً لا أدري ماهيتَهُ، لكنَّهُ كانَ خانقا

تلكَ هي الأحلامُ مزيجٌ من شتاتِ الذكرى وروحانياتٍ عمياءَ، عالمٌ هزجٌ يسحبُ النفسَ في

سباتِها إلى سراياهُ ليحاكيَ ما لم تستطعْ تحقيقَهُ ويهبَها ما لم تستطعْ نيلَهُ، فتنتشي انتشاءَ الغانمِ ثم تصحو فتُخذَلَ، أو تكونَ كابوساً خانقاً يحاكي حلكةَ الذكرى وعتمةَ المخاوفِ، يذعرُ النفسَ فتصحو وتتنفسُ الصعداءَ وتشكرُ همّاً لم تعِشْهُ لكنَّها عاشتْهُ.

تُدعى الأحلامُ الخانقةُ بالكوابيسِ لأنَّها نقمةٌ تتجنبُها النفسُ وتهربُ منها، لكنَّها تقعُ في قعرِها كلما اجتهدتْ في الهربِ لأنَّ الكوابيسَ حتميةٌ تأتي لتذكرَ النفسَ أن لا وجودَ لمطلقِ السعادةِ والنيلِ الحقِّ لمطلقِ الرغباتِ حتى في عالمِ الأحلامِ.

قيلَ إنَّ "الأحلامَ هي أطفالُ الدماغِ الخاملِ، لا يُنجبونَ إلا من خيالٍ فارغٍ"، لكنَّ جُلَّ الأدمغةِ تحلمُ وكلَّ الأدمغةِ ترغبُ، فما نحنُ دونَ

الحالمينَ وباغيي الأماني إلا أرواحٌ جوفاءُ تأبى صيدَ المعالي ونيلَ المباغي. إنَّ ظاهرةَ الحلمِ لا تُفسَّرُ، لا تُكتَبُ ولا تُصوَّرُ؛ لأنَّها تفوقُ كلَّ قلمٍ وكلَّ لونٍ وحرفٍ، ولا تُدرَكُ إلا بالحسِّ؛ لأنَّ الخوضَ في عالمِ الأحلامِ هو أن تعيشَ ما لم تعشْهُ، وتحسَّ ما لم تحسَّهُ ثم تصحو.

الصحوةُ هي ذلكَ الخيطُ الرفيعُ الذي يفصلُ بينَ عالمِ الأحلامِ وعالمِنا الحقيقيِّ، هي ذلكَ النَفَسُ الأولُ وبرهةُ الإدراكِ الأولى التي تصيبُنا عندَ انتهاءِ الحلمِ ووطءِ هذا العالمِ، وهي ذلكَ الصوتُ الذي يتناهى إلينا فينتشلُنا من العتمةِ ليخبرَنا أنَّنا هنا، أنَّنا عُدنا وأنَّ الحياةَ لا زالتْ تمضي. صوتٌ واحدٌ كان كفيلاً بتمزيقِ جدارِ الصمتِ.

أخيراً انتهى الكابوسُ ووطئتُ عالمَ اليقظةِ أينَ كلُّ شيءٍ مرئيٌّ ومسموعٌ ويُعاشُ.

صحوتُ على صوتِ امرأةٍ، فتحتُ عينيَّ كنتُ مدركاً أنَّ هناكَ شيئاً مختلفاً. كانتِ الساعةُ تشيرُ إلى الثالثةِ صباحاً. الصوتُ مألوفٌ؛ إنَّه صوتُ جارتي في الشقةِ المجاورةِ، صوتُها الذي اعتدتُ سماعَهُ صباحاً ومساءً وفي الساعاتِ المتأخرةِ من الليلِ. هو ذلكَ الصوتُ الصارخُ المجادلُ الذي باتَ جزءاً من ضجيجِ هذا المبنى، مثلهُ مثلُ صريرِ أبوابِهِ وخريرِ المياهِ في أنابيبِهِ. باتَ ذلكَ العتابُ المعتادُ جزءاً لا يتجزأُ من الروتينِ الصباحيِّ لجميعِ سكانِ العمارةِ. لطالما أشفقتُ على زوجِها السيدِ صابرٍ، وكذلك أشفقَ جميعُ سكانِ البنايةِ. كنا عندما نتسامرُ في الليالي

الصيفيةِ على السطحِ نسمعُ صراخَها من بعيدٍ ونهزُّ رؤوسَنا بحسرةٍ:

"صابرٌ المسكينُ ابتُليَ بزوجةٍ لا يُجهدُها الصراخُ". كنا نراهُ يصعدُ الدرجَ متأخراً بخطواتٍ ثقيلةٍ ووجهٍ منهكٍ فنزدادُ يقيناً بأنَّهُ الضحيةُ الصامتةُ لهذه المعركةِ اليوميةِ.

السيدُ صابرٌ كان صابراً فعلاً، بل مثالاً يُحتذى بهِ للهدوءِ والصبرِ، أما هي جارتُنا "هاديةُ" فلم نعرفْ عنها إلا صوتَها الذي اخترقَ الجدرانَ وتسللَ من تحتِ الأبوابِ وصارَ عنواناً لها حتى في غيابِها. هي امرأةٌ في العقدِ الثالثِ من عمرِها، تزوجتِ السيدَ صابرٍ منذُ سبعِ سنواتٍ. قيلَ إنَّها كانت سابقاً "هاديةً" اسماً على مسمى؛ هادئةَ الطبعِ، لينةَ القلبِ، بشوشةً ولا ترفضُ طلباً لأيٍّ من سكانِ العمارةِ، لكن كأيِّ امرأةٍ تأخرتْ

عن الإنجابِ سبقتْها النعوتُ وأصابعُ الاتهامِ. كنا نسمعُ الهمسَ في الممراتِ: "ستُّ سنواتٍ دونَ حملٍ، لا بدَّ أنَّها تعاني من أمرٍ ما"، حتى إنَّ البعضَ قالوا إنَّها ممسوسةٌ وإنَّ صابراً مسحورٌ. كنا ننظرُ إليها حينَ نلتقيِها صدفةً في الدرجِ، كانت تمرُّ كالظلِّ، وجهُها باهتٌ وعيناها كبحرٍ جفاهُ المطرُ فصارتا غائرتينِ لا تعكسانِ إلا ظلَّ ما كانَ، دائماً ما تلفُّ نفسَها في جلبابٍ فضفاضٍ تختبئُ فيهِ من الأعينِ التي لا ترحمُ. كنا ننظرُ إليها فنرى امرأةً سُحبتْ منها ألوانُها، امرأةً ذابتْ ملامحُها في الوجومِ كأنَّ الزمنَ مرَّ عليها وحملَ معالمَ الحياةِ فيها معَهُ. لطالما ظنَّ الجميعُ أنَّ هذا هو ثمنُ صراخِها وأنَّ هذا هو وجهُ القسوةِ التي تملأُ بها البنايةَ صباحاً ومساءً، لكن هذهِ المرةَ كانَ الصوتُ مختلفاً، لم يكن مجردَ عتابٍ

معتادٍ ولا شجارٍ عابراً، كان في نبرتِها شيءٌ أشبهُ بالانهيارِ.

لم أكن يوماً مولعاً بالتجسسِ ولطالما حافظتُ على هذا المبدأِ رغمَ وضوحِ ما يصلُنِي عبرَ الجدارِ، لكنَّ مبادئي انهارتْ لانهيارِ نبرتِها. كانت كلماتُها متقطعةً وتأتيني عبرَ الجدارِ كشظايا زجاجٍ تتساقطُ

أنا تعبتُ يا صابرُ، تعبتُ وأُجهدتُ ولم أعُدْ أحتملُ هذا الوضعَ، ستُّ سنواتٍ وأنا أعدُّ النجومَ، ستُّ سنواتٍ وأنا أسائلُ المرآةَ:

هل العيبُ فِيَّ أم أنَّ القدرَ مكتوبٌ؟

حتى في الأقدارِ السعيُ مطلوبٌ

أم أنَّ السعيَ في حالتِي ميؤوسٌ

أم أنَّ ما كُتبَ لي في الأقدارِ مسطور"

ثم جاءَ صوتُهُ هادئاً بارداً:

" ستُّ سنواتٍ يا هاديةُ، استسلمِي، أنتِ لستِ لها، أنتِ لستِ أهلاً للأمومةِ، مَن لم يؤتِهِ اللهُ فلن يؤتِيَهُ أحدٌ."

وقعتْ كلماتُهُ الخاويةُ عليها وقعَ الندى على الرمضاءِ فانفجرتْ

"-أنا يا صابرُ لستُ أهلاً لها؟ أنا التي سألَنِي أهلِي واتَّهمنِي جيرانِي؟ أنا التي قالتْ لي أمِّي: لعللكِ على ذنبٍ، لعللكِ مغضوبٌ عليكِ.. أنا لستُ أهلاً؟ وأنتَ؟ وأنتَ يا صابرُ أينَ ذهبتَ ومتى سُئلتَ؟ أينَ وقفتَ ومتى بكيتَ؟ كلُّ السؤالِ لي وحدِي وكلُّ الدمعِ لي وحدِي وأنتَ الرجلُ المنزهُ، الرجلُ البريءُ؟

-أنا رجلٌ يا هاديةُ، والرجلُ لا يبكي ولا يُسألُ. " الرجلُ لا يقفُ على عتباتِ المشافِي كالطفلِ

التائهِ، الرجلُ يعرفُ كيفَ يكونُ صبوراً دون ان يكسر ، أما أنتِ يا هاديةُ فأنتِ وعاءٌ هشٌّ ضعيفُ الحمولةِ".

في الصباحِ، خرجتُ لأشتريَ الخبزَ. كنتُ أتمنى ألا ألقى أحداً. كنتُ أتمنى أن يكونَ المبنى خاوياً، أن يكونَ الصباحُ صباحاً عادياً لا يحملُ شيئاً.

لكن كانَ للقدرِ رأيٌ آخرُ.

في الدرجِ، بينَ الطابقِ الثالثِ والثاني، التقينا. كانَ واقفاً هناكَ، يداهُ في جيوبِهِ، عيناهُ على الأرضِ كأنَّهُ يعدُّ البلاطاتِ أو يبحثُ عن شيءٍ سقطَ منهُ.

ظهرُهُ منحنٍ، كمن يحملُ من الهمومِ ما لا تطيقُ الجبالُ. رفعَ رأسَهُ فرآني، فابتسمَ، ابتسامةً لا تلامسُ شفتيهِ ولا تصلُ إلى عينيهِ.

".صباحُ الخيرِ"

- صباحُ الخيرِ يا سيدَ صابرٍ
- السماءُ اليومَ صافيةٌ
- إنَّها صافيةٌ منذُ يومينِ، أدامَ اللهُ علينا هذا الجوَّ
- أظنُّ أنِّي لم أنظرْ إلى السماءِ هذينِ اليومينِ
- المرءُ ينهمكُ في النظرِ إلى الأرضِ أحياناً فينسى ما يسطعُ في السماءِ
- ربما لأنَّ الأرضَ أكثرُ أماناً
- أو لأنَّ المرءَ يخافُ أن يرفعَ رأسَهُ

ربتَ على كتفِي قائلاً: "النظرُ للأرضِ نعمةٌ. الأرضُ لا تخونُ."

ثم مشى. توقفَ عندَ أولِ درجةٍ، قالَ دونَ أن يلتفتَ:

"مَن في السماءِ يا بنِيَّ وحدَهُ يرى كلَّ شيءٍ." ثم نزلَ. لم يلتفتْ. لم يقلْ شيئاً آخرَ.

لكنَّهُ بعدَ خطواتٍ قليلةٍ توقفَ.

وقفَ هناكَ، ظهرُهُ لي، ثم التفتَ ونظرَ إليَّ. ونظرتُ أنا إليهِ، والتقتْ أعينُنا.

ثم وفي مدةٍ لم يسعْنِي الوقتُ أن أعيَها لم أعُدْ في الدرجِ ولا المبنى، لم أعُدْ في هذا العالمِ. كانت نظرةً واحدةً لكنَّها لم تكن سوى نظرةٍ.. كانت كالهوى كما لو أنَّ الأرضَ انشقتْ من تحتِ قدمِيَّ وكأنَّ السماءَ انطبقتْ على رأسِي، كأنَّ الزمنَ توقفَ بل كأنَّهُ لم يكنْ.

فتحتُ عينيَّ.. أينَ أنا؟ أأدركنِي الموتُ عن غيرِ وعيٍ أم أنِّي لم أصحُ من الكابوسِ الماضِي؟

لكنَّ هذا الفانوسَ لم أرَهُ من قبلُ، وهذهِ المنضدةَ كذلكَ.

غرفةٌ كالقبرِ، لا تتسعُ إلا لمن يموتُ فيها. والفانوسُ معلَّقٌ في الجوِّ كأنَّهُ نجمٌ سقطَ من علیائِهِ، ذو ضوءٍ أصفرَ يخترقُ الظلمةَ اختراقَ الرمحِ، ثم يذوبُ في الجدرانِ بينما تتصارعُ ظلالُهُ العاتمةُ كأصحابِ القضيةِ. منضدةٌ من خشبٍ شاخَ، عليها كأسٌ من فخارٍ واقفٌ كالحارسِ، نصفُهُ ممتلئٌ بما لا يُسألُ عنهُ. ستائرُ مسدلةٌ كأستارِ القبورِ، تحجبُ النهارَ حجابَ الغيظِ، تمرُّ بها الريحُ فتئنُّ، ونافذةٌ لا تُفتحُ.

وطفلٌ جاثٍ كالطيرِ المكسورِ الجناحِ، ثوبُهُ رماديٌّ، في يدِهِ سيارةٌ حمراءُ، عجلةٌ منها مفقودة. وامرأةٌ في وسطِ الغرفةِ، كانت هناكَ منذُ البدءِ كأنَّها جزءٌ من هذا المكانِ.. تبكي بلا صوتٍ، وحدَها الدموعُ تسيلُ على خدَّيْها، وحدَها الدموعُ تنهشُ وجهَها، لا ترتجفُ، لا

تئنُّ، منتصبةٌ كالصخرِ. انتفخت ملامحُها من بكاءٍ منهمر ، عيناها حمراوانِ، عينانِ رأتا ما لم يُرى وتعرفانِ ما لم يُعرَف. شعرُها منثورٌ على كتفَيْها، لم يمسَّهُ مشطٌ منذُ أيامٍ. ثوبُها رثٌّ، كأنَّها لا تريدُ أن تلبسَ شيئاً.. تنظرُ إلى الطفلِ، لا ترفعُ عينَيْها عنهُ، كأنَّهُ آخرُ ما تبقى، كأنَّهُ سيغيبُ لو أغمضتْهما. والطفلُ لا يراها، يحركُ سيارتَهُ على البلاطِ، لا ينظرُ إليها، لا يعلمُ أنَّها تبكي.. والصمتُ بينهما، صمتٌ أثقلُ من البكاءِ، صمتٌ يملأُ الغرفةَ، صمتٌ لا ينكسرُ، صمتٌ يريدُ أن يقولَ شيئاً لكنَّهُ لا يستطيعُ.

ثم أتانِي صوتٌ لم يكنْ كالأصواتِ، صوتٌ لا يحركُ ساكناً، صوتٌ لم يعبرْ أثيرَ الغرفةِ، صوتٌ كالنجوى بل هو نجوى:

"رباهُ أنتَ لا تحمِّلُ نفساً إلا وُسعَها.

أفيسعُ الفؤادَ جوايَ
أم صارَ قلبِي أوسعَ البيوتِ؟
طفلِي يلعبُ ظانّاً أنَّ الغئب سيأتي من الباب .
رباهُ فما أقولُ لطفلٍ سؤلُهُ: أينَ أبتِي؟
كلمةُ "أبداً" كيفَ تدخلُ قلباً بهِ أملٌ لا ينتهِي؟
بنِيَّ، حُكمَ عليكَ بالصبرِ اسماً وقدراً، عسى أن تكونَ من الكرامِ البررةِ".
الصبرُ؟ نظرَ الطفلُ إليَّ... تلكَ العينانِ... لا... لا يمكنُ... عينانِ أعرفُهُما جيداً، رأيتُهُما قبلَ قليلٍ في الدرجِ، منكسرتينِ، متعبتينِ، تخفيانِ ما لا يُقالُ.
همستُ: "صابرٌ؟" لكنَّ الصوتَ لم يخرجْ، أو ربما خرجَ... ولم يسمعْهُ أحدٌ. لم يجبْنِي أحدٌ، وظلَّ الطفلُ ينظرُ لي، خُيِّلَ لي لوهلةٍ أنَّهُ

سمعنِي، أنَّهُ يعرفُنِي، وأنَّ لهُ تفسيراً لما يحصلُ، خُيِّلَ لي أنَّهُ سينبؤنِي بأنني في حلمٍ ثم أصحو.

اهتزَّ الضوءُ وها أنا للمرةِ الثانيةِ في مكانٍ لم أعهدْهُ، لم أعُدْ في الغرفةِ. وجدتُ نفسِي في ممرٍّ أبيضَ... باردٍ... طويلٍ... بلا نهايةٍ. رائحةُ المطهراتِ تعبقُ في الجو، رباهُ أأُغميَ عليَّ في الدرجِ وحُملتُ إلى هنا؟

تقدمتُ ببطءٍ، وأنا لا أدري أأسيرُ بإرادتِي أم أُساقُ، كأنَّ قدميَّ قد عرفتا الطريقَ قبلِي، وكأنَّ هذا المكانَ... كان ينتظرُنِي منذُ زمنٍ. ثم رأيتُهُ، جالساً عندَ طرفِ الممرِّ، منحنِي الظهرِ، كأنَّ شيئاً فوقَ كتفَيْهِ لا يُرى، لكنَّهُ أثقلُ من أن يُحمَلَ. صابرٌ. لكن لا... ليسَ ذلكَ الرجلَ الذي رأيتُهُ في الدرجِ، ولا ذلكَ الطفلَ الصغيرَ ولا ذلكَ

الذي يلوذُ بالصمتِ، بل إنسانٌ منزوعُ الحيلةِ، مجردٌ من كلِّ ما يتظاهرُ بهِ أمامَنا.

كان ينظرُ إلى الأرضِ، لكنني شعرتُ أنَّهُ لا يراها. فتحَ البابُ، خرجَ طبيبٌ في يدِهِ ملفٌّ وأثرُ التردِدِ في صوتِهِ، كأنَّ الكلماتِ التي يحملُها ليست من النوعِ الذي يُقالُ بسهولةٍ:

"التحاليلُ جاهزةٌ".

لم يتحركْ صابرٌ.

"النتائجُ واضحةٌ..." صمتَ الطبيبُ لحظةً، ثم قالَها كمن يلقي حقيقةً لا رجوعَ عنها:

"المشكلةُ ليست في الزوجةِ".

في تلكَ اللحظةِ، لم يتغيرْ شيءٌ في وجهِ صابرٍ، لكنَّ قوةً ما جعلت الجوَّ خانقاً أكثرَ مما كانَ عليهِ، كما لو أنَّ انكسارَ روحِهِ انتشرَ عبرَ الأثيرِ:

"العقمُ فيكَ أنتَ". جملة واحدةٌ... لكنَّها لم تكن سوى جملة، كانت حكماً، كانت صورةً كاملةً تُمحى وتُرسمُ من جديدٍ. رفعَ رأسَهُ ببطءٍ، ونظرَ إلى الطبيبِ، نظرةً لا احتجاجَ فيها، ولا دهشةَ، بل فيها شيءٌ أقربُ إلى الاعترافِ.

- "أعيدُوا التحليلَ.
- أُعيدَ ثلاثَ مراتٍ.
- إذن... يكفي".

أخذَ الملفَ، فتحَ الصفحةَ، قرأَ.

ولم يكن يقرأُ نتائجَ، بل كان يقرأُ حكماً على نفسِهِ، على صورتِهِ، ثم أخذَ يهمسُ كمن يحدثُّ نفسَهُ في مرارةٍ:

"يا صابرُ، بالصبرِ سُمِّيتَ كي ترثَ عبئاً عجزتِ الجبالُ عن حملِهِ. أبوكَ الذي غابَ لم له الموت خيار، لكنَّكَ في ميتتِكَ الآنَ مخيَّرٌ، لا

تتركِ البيتَ الذي بنيتَهُ يُهدَمُ كما هُدمَ بيتُكَ سابقاً، ولا تدعْ صوتَ مَن تحبُّ يغيبُ كما غابَ صوتُ أبيكَ. يا صابرُ، الرجالُ في هذا العالمِ لا يبكونَ جراحَهُم بل يدفنونَها ليظلَّ سقفُ البيتِ مرفوعا ،

ازرعْ في صدرِ مَن أحببتَ وردةَ ذنبٍ ولا تزرعْ فيهِ نصلَ خيبةٍ مرةٍ، فالذنبُ يُغفرُ لكنَّ الخيبةَ لا تُشفى". ثم اقتربَ من الطاولةِ،

كان هناكَ قلمٌ،

"سامحِيني يا هاديةُ، قد أقدرُ على حملِ وزرِ ظلمِكِ، لكنِّي لا أقوى على حملِ وزرِ فراقِكِ". وللحظةٍ، بدتْ يدُهُ كأنَّها لا تنتمي إليهِ، ثم أمسكَهُ، وبهدوءٍ مخيفٍ، بدأَ يكتبُ، وفجأةً غُيّرَت الكلماتِ، وكذلك تغيَّرَت الحقيقةَ:

"الزوجةُ تعاني من خللٍ".

لم يكن يزوِّرُ تقريراً، بل كان يعيدُ ترتيبَ الواقعِ ليحفظَ لنفسِهِ مَن لا يستطيعُ العيشَ دونَها.

في تلكَ اللحظةِ... شعرتُ بالغضبِ، وددتُ لو قبضتُ على خناقِهِ، لو سحبتُ الأوراقَ من يديهِ، لو أعدتُهُ لوعيِهِ، لكني لم أستطعْ حتى على الحركةِ.

ثم تملكَنِي شعورٌ أثقلُ من الغضبِ؛ فهمٌ، فهمٌ جارحٌ.

ثم اهتزَّ المكانُ، وانسحبَ كلُّ شيءٍ كما لو لم يكنْ. فتحتُ عينيَّ.. إنَّهُ الدرجُ. نفسُ الجدرانِ، نفسُ الصمتِ، لكنَّهُ لم يكن نفسَ العالمِ. كان صابرٌ أمامِي، يناظرُنِي بنفسِ النظرةِ لكنني الآنَ لم أعُدْ أراها كما كانتْ.

لم أعُدْ أرى رجلاً صامتاً، بل صرتُ أرى كلَّ ما يختبئُ خلفَ ذلكَ الصمتِ، كلَّ ما لا يُقالُ، كلَّ

ما دفنُهُ ليستمرَّ عيشُهُ. شعرتُ بثقلٍ في صدرِي، كأنَّ شيئاً منهُ ظلَّ عالقاً بي. تراجعتُ خطوةً، ونظرتُ إليهِ، لا كما ينظرُ الناسُ، بل كما ينظرُ مَن رأى ما لا ينبغي أن يُرى. حينها تسربَ إلى نفسِي سؤالٌ وددتُ لو أبصرُ إجابتَهُ بالعينِ التي أبصرتْ ما لا يُرى:

ما الذي يحدثُ لي؟ ما لي أرى ما لا يُرى؟ كيفَ نفذتُ إلى ما وراءِ الوجوهِ، إلى تلكَ العوالمِ التي لا تُدركُ إلا في العتمةِ... أو في الحلمِ؟

الحلمُ... أليستِ الأحلامُ كذلكَ؟ أبوابٌ تُفتحُ دونَ إذنٍ، تدخلُ بنا إلى حيواتٍ ليست لنا، نجرِّبُ فيها آلاماً لم نعشْها، ومشاعرَ لم نخترْها، ثم نُلقى منها فجأةً كأنَّ شيئاً لم يكنْ؟ لكنَّ هذا... هذا لم يكن حلماً، أو... لعلَّهُ كانَ. ما الفرقُ إذن إن كانَ ما أراهُ يؤلمُنِي كالحقيقةِ؟ ما

الفرقُ إن كنتُ أخرجُ منهُ محملاً بما ليسَ لي؟ نظرتُ إلى صابرٍ مرةً أخرى، وشعرتُ بشيءٍ جديدٍ، شيءٍ لم أعرفْ اسمَهُ من قبلُ، شعرتُ بالرحمةِ، لا لأنَّهُ ضحيةٌ، ولا لأنَّهُ مخطئٌ، بل لأنَّهُ إنسانٌ.

نزلتُ الدرجَ، والعالمُ... لم يعُدْ كما كانَ. ذ

في الخارجِ، كانتِ الشمسُ تشرقُ، لكنني شعرتُ بأنَّ إشراقَها لم يعُدْ يكفي، كما لو أنَّ ما في الكونِ جميعاً لم يعُدْ يكفي لأنَّهُ لا يشفي غليلِي ولا يستجيبُ لسؤلاي.

ثم رأيتُها، كانت تجلسُ عندَ بابِ العمارةِ، تلكَ العجوزُ التي لطالما مررتُ بها دونَ أن أراها أحياناً.

كنا نناديها "خالتي زينبُ". لم أعرفْ إن كانَ هذا اسمَها فعلاً، أو اسماً منحناهُ إيَّاها لأنَّنا لم نحاولْ

يوماً أن نعرفَ. كنتُ أمرُّ بها كلَّ صباحٍ، تحيِّيني بنظرةٍ خفيفةٍ، وأردُّ... أحياناً، أحياناً فقط.

في ذلكَ الصباحِ، حينَ رفعتْ رأسَها ونظرتْ إليَّ، لم تكنِ النظرةُ عابرةً، كانت طويلةً، أطولَ مما ينبغي.

ثم حدثَ ذلكَ الانزلاقُ، لا السقوطُ بل الكشفُ. وجدتُ نفسي في بيتٍ قديمٍ، واسعٍ، تملؤهُ الضحكاتُ. كانت هناكَ، لكن ليست كما أعرفُها، كانت شابةً، لا... كانت أكثرَ من ذلكَ، كانت فاتنةً بالمعنى الحرفيِّ، كلُّ شيءٍ يدورُ حولَها الحديثُ، الأنظارُ، حتى الأضواءُ تميلُ نحوها.

سمعتُ صوتَ امرأةٍ تقولُ: "زينبُ، تعالَيْ، الضيوفُ ينتظرونَكِ".

زينبُ إذن، كان هذا اسمَها فعلاً. كانت تمشي بخفةٍ، بثقةِ مَن لم يعرفْ بعدُ أنَّ كلَّ هذا... سيزول.

ثم رأيتُ رجلاً، لم يكن بارزاً ولا صاخباً، لكنَّهُ كان ينظرُ إليها كما لو أنَّها العالمُ. لم أفهمْ في البدايةِ، لكنني شعرتُ أنَّ شيئاً بينهما لم يُقلْ بعدُ لكنَّهُ موجودٌ.

ثم تلاشتِ الأضواءُ وتلاشتِ الأنظارُ، كان البيتُ نفسُهُ...

لكنْ أهدأُ، دونَ الضحكاتِ دونَ الوجوهِ، والزمنُ أثقلُ. كانت تجلسُ وحدَها، تنظرُ إلى البابِ، تنتظرُ:

"سيأتي، أليسَ كذلكَ؟"

قالتها لامرأةٍ بجانبِها، لكنَّ المرأةَ لم تُجبْ.

مرَّ الوقتُ ولم يأتِ، لم أعرفْ ما حدثَ لهُ، أماتَ؟ سافرَ؟ تخلَّى؟ لكنني عرفتُ شيئاً واحداً أنَّهُ لم يعُدْ. ومنذُ تلكَ اللحظةِ... لم تغادرْ هي.

رأيتُها بعدَ سنواتٍ، نفسُ المكانِ، نفسُ البابِ، لكنَّ البيتَ... لم يعُدْ ممتلئاً، الوجوهُ اختفتْ والأصواتُ اختنقتْ وبقيتْ هي.

ثم عدتُ إلى الشارعِ، وعادت هي إلى الهيئةِ التي عرفتُها عليها. نظرت في عينَيْها برهةً، فاقترأتُ فيهما خطاباً مدادُهُ البحارُ صارخةً:

"أيا دهرُ ما لكَ تغدو

وتحتسي غلوائِي وتعجَلُ؟

أتُنكرُ في ثناياكَ عذابِي

أم تزدري من قلبِي عنائِي؟

لو ما تعودُ يا دهرُ" لكنها كانت تدري جيد ان لا رجعى الآن

حينَ عدتُ... كنتُ أمامَها، لكنني لم أستطعْ أن أنظرَ.

مشيتُ ببطءٍ، ليس لأنَّ الطريقَ طويلٌ... بل لأنني لم أعُدْ خفيفاً. كان في داخلِي شيءٌ جديدٌ، شيءٌ لم أعرفْ اسمَهُ بعدُ.

كنتُ أرى... أم كنتُ أُدخلُ؟ ما الذي حدثَ قبلَ قليلٍ؟ أكَانَتْ ذكرياتِها؟ أم كانت حياتَها كما عاشتْ؟ أم كما تذكرتْها؟ الأحلامُ...

لطالما ظننتُ أنَّ الحلمَ شيءٌ يخصُّنا، ينبعُ منَّا، من عقولِنا الخاملةِ، من ذكْرانا، من مخاوفِنا ومن رغباتِنا، لكنَّ ما رأيتُهُ لم يكن لي.

كيف دخلتُ حياةً لم أعشْها؟ كيف شعرتُ بانتظارٍ لم أنتظرْهُ؟ كيف حزنتُ على رجلٍ لم

أعرفْهُ يوماً؟ أيمكنُ أن يكونَ للحلمِ أبوابٌ أخرى؟ أبوابٌ لا تُفتحُ من الداخلِ... بل من الخارجِ؟

أيعقلُ أن يكونَ ما نراهُ في منامِنا ليس دائماً لنا، بل أحياناً لغيرِنا؟

توقفتُ، نظرتُ إلى يدَيَّ لأتأكدَ أنني ما زلتُ أنا. كانتَا يدَيَّ فعلاً لكنني لم أكن أنا، ليسَ تماماً.

كان في داخلِي شيءٌ منها، من انتظارِها، من صبرِها الذي لم يُكافأْ، من ذلكَ الزمنِ الذي ظلَّ واقفاً عندَ بابٍ... ولم يُفتحْ. شعرتُ بخوفٍ، ليسَ من القدرةِ العجيبةِ التي ظهرتْ صدفةً هذهِ الصبيحةِ لكن من ثقلِها. ماذا لو استمرَّ هذا؟ ماذا لو صرتُ أرى الجميعَ؟ ماذا لو لم أعُدْ أستطيعُ النظرَ في أعينِ أبناءِ جنسِي دونَ أن أغرقَ؟

أخذتُ برهةً أتأملُ في الناسِ، كلٌّ وجهٍ صارَ باباً، وكلُّ نظرةٍ صارت احتمالاً. أدركتُ حينها أنني لم أعُدْ أعيشُ في عالمٍ واحدٍ، بل في عوالمَ... تختبئُ خلفَ العيونِ. لم أعُدْ أذكرُ متى بدأتُ أخافُ من النظرِ.

في البدايةِ، كانت مجردَ صدفةٍ، نظرةً أطولَ من اللازمِ، ثم انفتاحٌ وانزلاقٌ ثم عودةٌ.

كنتُ أظنُّ أنَّ الأمرَ عابرٌ، كما تعبرُ الأحلامُ، تزورُنا لوهلةٍ ثم تتركُنا لنشكَّ أعِشْناها أم تخيَّلناها؟ لكنَّ الأمرَ تجاوزَ ذلكَ، صرتُ أرى... في كلِّ وجهٍ أقابلُهُ حكايةً تختبئُ، تنتظرُ أن تُقالَ، لا بصوتٍ بل بنظرةٍ.

كنتُ أمشي في الشارعِ، فأخفضُ بصري، لا تواضعاً لكنما خوفاً، خوفاً من أن أرى، لأنَّ الرؤيةَ... لم تعدْ بريئةً.

لم تعدِ الوجوهُ وجوهاً، ولا الأصواتُ أصواتاً، ولا الصمتُ صمتاً، كلُّ شيءٍ صارَ باباً.

في البدايةِ، كنتُ أظنُّ أنني أُمنحُ، أنَّ هذهِ القدرةَ... هبةٌ، أنني أرى ما لا يراهُ غيري، أفهمُ ما لا يُفهمُ، ألمسُ ما لا يُقالُ.

ثم أدركتُ... أنني لا أُمنحُ، بل أُثقَلُ. كلُّ نظرةٍ كانت تتركُ فِيَّ أثراً، كلُّ حكايةٍ كانت تلتصقُ بي كأنَّها تبحثُ عن مكانٍ تعيشُ فيهِ، حتى صرتُ لا أعرفُ أيُّ الحزنِ حزنِي وأيُّ الوجعِ وجعِي.

أليسَ هذا أشبهُ بالأحلامِ؟ لطالما ظننتُ أنَّ الأحلامَ هي أبناءُ العقلِ، تخرجُ منهُ وتعودُ إليهِ، لكن... ماذا لو لم تكن كذلكَ؟

ماذا لو كانتِ الأحلامُ مجردَ نوافذَ نطلُّ منها، لا على أنفسِنا... بل على غيرِنا؟

نعيشُ فيها حيواتٍ لا تخصُّنا، نحزنُ لآلامٍ لم نعشْها، ونفرحُ بأشياءَ لم نكتسبْها، ثم نصحو... دونَ أن ندركَ أنَّ شيئاً منها بقيَ فينا.

ربما ما رأيتُهُ لم يكن قدرةً، ربما كان انكشافاً، انكشافاً لذلكَ الحاجزِ الرقيقِ الذي يفصلُنا عن بعضِنا، ذلكَ الوهمِ الذي يجعلُ كلاًّ منَّا يظنُّ أنَّهُ وحدَهُ.

نحنُ لا نرى بعضَنا لأنَّنا لا نحتملُ أن نعرفَ أنَّ خلفَ كلِّ وجهٍ هادئٍ عاصفةً، وخلفَ كلِّ صمتٍ صرخةً، وخلفَ كلِّ ابتسامةٍ ألماً لم يُشفَ بعدُ. فاخترعنا المسافةَ، اخترعنا العيونَ التي ترى السطحَ ولا تنفذُ.

لكن ماذا لو سقطَ ذلكَ الحاجزُ؟ ماذا لو رأينا حقاً؟ هل سنقتربُ أكثرَ؟ أم سنهربُ؟

لا أعلمُ. لكنَّ كلَّ ما أعلمُهُ أنني، منذُ ذلكَ اليومِ، لم أعُدْ أنظرُ كما كنتُ. صرتُ أختارُ متى أرى ومتى أغمضُ عينيَّ، لا لأنني لا أستطيعُ، بل لأنني لا أتحملُ.

وفي بعضِ الليالي، حينَ يثقلُ كلُّ شيءٍ، أستلقي وأتركُ نفسِي للنومِ، فتأتيِنِي الأحلامُ، لكنَّها لم تعدْ كما كانتْ، لم تعدْ مجردَ صورٍ مبعثرةٍ ولا رغباتٍ ضائعةً، بل صارت امتداداً، امتداداً لما لا نراهُ في اليقظةِ، لما نُخفيهِ، لما نعيشُهُ بصمتٍ ونمرُّ بهِ دونَ أن يرانا أحدٌ. أحياناً أصْحو فأشعرُ أنني لم أعُدْ وحدِي، أنَّ في داخلِي أصواتاً ووجوهاً وحكايا ليست لي، فأبتسمُ، ليسَ لأنني سعيدٌ، بل لأنني... فهمتُ.

فهمتُ أنَّ جوهرَ الإنسانِ ليسَ فيما يُظهرُهُ، بل فيما يُخفيهِ.

-تمت بحمد الله -